هيفاء البشير وقصص الأطفال

راشد عيسى [1]

هيفاء البشير سيدة أردنية وارفة الظلال، خصيبة العطاء في كل الاتجاهات، لها دور ريادي بليغ واسع في مجالات التنمية الصحية ورعاية كبار السّن وتفعيل حركة المرأة الأردنية في المجال الاجتماعي. فسيرتها الذاتية تكشف عن شخصية إيجابية فعّالة تصنع الحياة والأمل للآخرين بفاعلية جمالية بارزة. ولعلّ مذكراتها في كتابها «محطات في رحلتي مع الحياة» ترينا مرايا نشاطها الاجتماعي والإنساني بوضوح، كما أن كتاب الأديبة المعروفة سحر ملص «هيفاء البشير تجربة وحياة» يضيء بصورة عميقة منجزات السيدة هيفاء في أغلب مجالات الحياة في الأردن، لا سيّما مجال رعاية المسنين والمرضى، سواء بالرعاية المباشرة أو الرعاية الجمالية كإدارتها منتدى الرواد الكبار.

قصص الأطفال

إن الروح الإنسانية الثقافية لدى السيدة هيفاء جعلتها تتجه إلى كل نشاط إنساني جميل يحقق الغبطة للآخرين. ومن الملاحظ أنها اتجهت لتحقيق ذلك إلى مرحلتين من مراحل العمر، الأولى مرحلة التقدم في العمر، وهي مرحلة أولتها هيفاء عنايتها الكبيرة الشاملة المؤثرة عبر حراكها الاجتماعي التنموي في المجال الصحي والثقافي بشكل عام.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الطفولة، أي الاهتمام بثقافة الطفل تربيةً ورؤى جمالية تعدّ الأطفال لحياة جميلة غنية بالقيم والفضاءات التربوية الصحيحة. وكلٌّ من المرحلتين

(1) أكاديمي وشاعر.

يتسم بالضعف الذي يحتاج عونًا من الآخرين سواء ضعف الجسد أو ضعف الحركة العقلية أو انحسار النشاط الذهني المواكب لمستجدات الواقع.

ومن هنا اتجهت السيدة هيفاء إلى إعداد الأطفال ليكونوا كبارًا، وإلى إعداد الكبار ليكونوا أطفالًا، وهذا يعني أنها تسعى إلى إدامة بهجة الحياة للأشخاص في هاتين المرحلتين. أما المرحلة الوسطى وهي مرحلة الشباب والقوة الجسدية والعقلية فقد تركتها تصنع نفسها لأنها أقل حاجة للعون والمساعدة وتفعيل الأحلام السعيدة.

إنّ ما يهمنا في هذه الورقة هو إسهام البشير في مجال الطفولة وتحديدًا في مجال أدب الأطفال. ولا شك أن سردّ الكتابة للأطفال هو شغف الكاتب بعالم الطفولة، عالم الحرية واللامسؤولية والحلم والحرية واللعب الحرّ، والحنين لتلك المرحلة حنينًا لا ينقطع، فالإنسان إذا خسر زمنه الطفولي وإحساسه به خسر المباهج الحياتية، ذلك لأن زمن الرشد والوعي هو زمن المسؤولية المؤلمة. فالحنين إلى الطفولة يولّد طاقة سرية عظيمة من الجسور والأمل وديمومة الشباب. كما أن مردّ الكتابة للأطفال يتمثل في هدف الكاتب في تنمية ثقافة الطفل لإعداده للحياة أو لإتقانه فن الحياة، فهو بحاجة إلى الوقوف بجانبه بصورة مختلفة، وبخاصة في مجال الأدب الذي يُنشّط خياله ويبعث المسرات في وجدانه. فالجميع حريص على تجنيب الأطفال حياة البؤس والشقاء والمعاناة النفسية على اختلاف أنماطها في الواقع المعيش.

لذلك اتجهت هيفاء إلى فنٍّ من فنون أدب الأطفال، الفن المحبّب لهم، وهو الحكايات والقصص القصيرة الجذابة التي توسّع مدراكهم العقلية وتحسّن اتجاهاتهم الإيجابية سلوكًا وتفكيرًا، وتجعلهم سعداء مع أُسرهم وفي مدارسهم وجميع عوالم حركتهم الطفولية. ولا يفوتنا أن ننتبه إلى أنَّ البشير أم لأطفال ربّتهم وعاشت معهم وكبرت معهم، فقد لامست حاجتهم إلى التربية الجمالية في كل فروعها، فأرادت تعميم خبرتها وقدراتها على الأطفال في الأردن عن طريق تأليف القصص والحكايات الملائمة لهم في مرحلتين: المرحلة

الأولى من سن (8-10) سنوات، والثانية من سن (12 إلى 16) سنة تقريبًا. إذ من الصعب جدًا تحديد المرحلة بدقة كاملة؛ فبعض الأطفال في الثامنة يقدمون وعيًا يفوق أطفال الثانية عشرة، كما أنّ مسألة النضوج تختلف بشكل عام من بيئة إلى بيئة، ففي إفريقيا مثلًا ينضج جسد الطفل مبكرًا متجهًا للبلوغ وهو في سن العاشرة تقريبًا، وفي حين يتأخر سن النضج في البيئات الجغرافية الباردة كشمال أوروبا، ومن هنا حددت اليونيسيف سن الطفل منذ الولادة حتى الثامنة عشرة.

مرحلة من (8-10) سنوات

عُنيت هيفاء البشير بهذه المرحلة الطفولية عناية متواصلة ومكثفة عبر إصدارها مجموعتين قصصيتين بالعنوان نفسه هو: « الفرح والسعد»، كتبت الأولى عام 1997، وفازت بجائزة الملكة نور لأدب الأطفال، لكنها أصدرتها مطبوعة عام 2008. أما المجموعة الثانية من العنوان نفسه فأصدرتها عام 2004م، وتضمنت كلُّ مجموعة عشر قصص قصيرة على النحو الآتي:

المجموعة الأولى ضمت القصص الآتية:

1. فرح وبرج الحمام.
2. متحف الفنون.
3. أطفال الفضاء.
4. خمس شمعات.
5. يوم ماطر وقوس قزح.
6. مشكلة.
7. الحمد لله كثيرًا.
8. حكايات جدتي.

9. الحارس الوفي.
10. فرح وسعد ومهنة المستقبل.
11. أما المجموعة الثانية فاحتوت القصص الآتية:
12. زيارة طبيب الأسرة.
13. بساط الريح.
14. شقاوة.
15. لا بُدّ أن يأتي ذلك اليوم.
16. ما أجمل الضياء في يوم عطلة صيفية.
17. الطفل العربي يخطو على طريقة الديمقراطية.
18. الأطفال والألغام المزروعة.
19. متعة الصداقة بين الرجال.
20. إنه نادينا.
21. قصة مستوحاة من قصة ستيلالونا.

مضامين القصص العشرين

اتجهت مضامين القصص وأفكارها إلى تحقيق المتعة والمسرات للطفل من خلال مسار علمي يقدّم المعلومات، ومسار آخر أخلاقي يدعو إلى القيم الأخلاقية الجميلة من خلال موضوعات تخصّ عالم الطفل في مثل هذه السّن.

أولًا: الجانب العلمي المعرفي

ضمّ هذا الجانب مجموعة من المعارف والمعلومات الجغرافية والمكانية والفكرية كقصص «فرح وبرج الحمام»، إذ يتعرف الطفل على منطقة جغرافية جميلة في الأردن، وهي منطقة زي في محافظة البلقاء، فيتعرف الأطفال إلى الحَمَام ويحبونه ويتأملون طيرانه،

بينما اتجهت قصة «متحف الفنون» إلى تدريب الطفل على إقامة متحف خاص به في بيته يرجع إليه باستمرار، وهو متحف من الصور والأدوات الجميلة.

وتناولت قصة «أطفال الفضاء» أحلام الأطفال في أن يكونوا رواد فضاء يحلقون في السماء ويشاهدون عوالمها الساحرة العجيبة. في حين عرضت قصة «خمس شمعات» يوم عيد ميلاد سعد الذي بلغ عمره خمس سنوات، فيحتفل به أهله ويغنون له.

أما قصة «يوم ماطر وقوس قزح» ففيها يتعرّف الأطفال إلى جمال الألوان في قوس قزح، الذي يظهر في فضل الشتاء في يوم مشمس رغم البرد والمطر. وتناولت قصة «مشكلة» كيف يستطيع الأطفال ترتيب ألعابهم وأدواتهم بالتشاور مع أمهم وبالتعاون معًا.

بينما اتجهت قصة «الحمد لله كثيرًا» إلى تعزيز الجانب الديني من خلال يوم العيد والصلاة في بداية اليوم، وتبادل الزيارات والسفر بالطائرة إلى العقبة ومشاهدة جماليات البحر.

في حين احتوت قصة «حكايات جدتي» على ذكريات الجد من جهة الوالد والحديث عن الحياة القديمة ووسائل مواصلاتها، وإكرام الضيف، والعمل بالزراعة والسكن في بيت الشعر، أما قصة «الحارس الوفي» فعرضت فيها الكاتبة قيمة الوفاء من خلال الحارس الأمين الذي عالج الكلب المريض انطلاقًا من مبدأ الرفق بالحيوان إلى درجة أنَّ الكلب أصبح صديقًا للطفل سعد.

أما القصة الأخيرة «فرح وسعد ومهنة المستقبل» فتُقدِّم حوارًا جذابًا بين فرح وسعد حول اختيار المهنة في المستقبل، وضرورة أن يكون للإنسان عمل يسهم في بناء المجتمع.

مضامين مجموعة الفرح والسعد (المجموعة الثانية)

تعرض القصة الأولى «زيارة طبيب الأسرة» أهمية مراجعة الطبيب عند الإحساس بالمرض، وتقدّم صورة صحيحة لسلوك الطبيب والمريض وأسرة المريض. بينما تناولت

قصة «بساط الريح يعبر القرن الحادي والعشرين» مجموعة من الأطفال يحكي كلٌّ منهم عن رغبته للشابة التي جمعتهم في السماء؛ فكلُّ طفل يعرض أمنية تتناسب مع القرن الحادي والعشرين لتكون الحياة أجمل بلا ظلم ولا حروب، وبروح إنسانية أخلاقية. أما قصة «شقاوة» فتظهر نماذج من شغب الأطفال في غياب أمهم، ولكن بأسلوب تربوي شائق. في حين تعرض قصة «لا بُدّ أن يأتي ذلك اليوم» صورة واسعة عن مدينة القدس التي زارتها الجدّة، فتقدم الجدة معلومات منوّعة عن الوضع الاجتماعي والسياسي لمدينة القدس، ثم الحلم العربي في استعادتها من المحتل.

بينما تعرض قصة «ما أجمل الضياء في يوم عطلة صيفية» رحلةً للأطفال في مزرعة يتعرفون فيها على أنواع من الأشجار والأزهار والأطيار والحياة البرية الطبيعية الجميلة.

أما قصة «الطفل العربي يخطو على طريق الديمقراطية»، فتقدّم نموذجًا حديثًا لقضية حقوق الأطفال في جوٍّ ديمقراطي، وكيف يمكن للأطفال أن يصنعوا برلمانًا خاصًّا بهم.

بينما تتناول قصة «الأطفال والألغام المزروعة» قضية ترك الألغام في الأرض عبر السنين بعد الحروب، وكيف تنفجر هذه الألغام بالناس ولا سيّما الأطفال. أما قصة «متعة الصداقة بين الأجيال» فتكشف عن حاجة الطفل لمشاركة من هم أكبر سنًّا منه كالجد والجدة للذهاب معهم في رحلة مثلًا، وتبادل الأدوار والانسجام في التعامل الجميل المتبادل، كما لو أنَّ الطفل والجدة صديقان من العمر نفسه. بينما تتحدث قصة «إنه نادينا» عن اجتماع الأطفال في ركن من أركان بيت جميل في مكان يسموّنه ناديًا يتحدثون فيه ويلعبون بحرية على غرار نوادي الكبار. في حين تعرض قصة «ستيلانونا» كيف تعايش الوطواط المختلف في طيرانه وحياته مع العصافير التي لها حياتها الخاصة، فاحتضنت العصافير الوطواط الصغير وتربى بينهم إلى أن كبر وطار. وهذا يدل على قيمة التسامح والتعايش وتقبّل الآخر من أجل الإخاء الإنساني والمحبة الجامعة.

الجماليات الأسلوبية في القصص:

1. حرصت كاتبتنا على أن يكون المستوى اللغوي للقصص ملائمًا لتلك المرحلة العمرية عبر استخدام المفردات من بيئة الطفل وقاموسه المتوقع، لكنها حرصت أكثر على الخروج أحيانًا على ذلك المستوى إلى مستوى أعلى منه قليلًا، بخاصة في قصص الفرح والسعد (المجموعة الثانية)، وفي هذا التعدد أو الخروج فضيلتان فنيتان، أولاهما تعلّم الطفل لأساليب تعبيرية أوفر يتزوّد بها كثروة لغوية جديدة، والثانية أنَّ قُرّاء القصص ليسوا بالضرورة من الفئة نفسها، فثمة أطفال يقرؤون قصصًا أعلى من مرحلتهم العمرية بسبب وفرة الذكاء والتميز، وقد لمحتُ هذا المستوى لأعلى من سن العاشرة في القصص التي تتحدث عن أمور حياتية علمية أو سياسية أو فكرية كقصص: الطفل العربي، وعلى طريق الديمقراطية، ولا بُدَّ أن يأتي ذلك اليوم، وغيرها.
2. جعلت الكاتبة فرح وسعد بطلين رئيسين في أغلب القصص، فرح تمثل الطفلة الأنثى، وسعد يمثل الطفل الذكر، وفي ذلك مراعاة للجندرة من تنوّع واقعي لطبيعة الأطفال، فاكتسب الطفل القارئ فكرة عامة عن هاتين الشخصيتين النموذجيتين في السلوك التربوي القائم على توجيهات الأبوين. وبدت القصص حكايات مثالية فيها كمٌّ كبير من القيم التي ينبغي أن يتعلمها الطفل.
3. اعتمدت الكاتبة السرد التتابعي المتسلسل في الأحداث، بحيث يبقى القارئ الطفل مُنْشَدًّا إلى الحكاية في تتابعها.
4. أدخلت البشير في قصصها مناسبات وأحداثًا عربية وإنسانية وعالمية كنوع من الزاد الثقافي للأطفال، وذلك بأسلوب تشويقي بسيط.
5. اتّكأت على صيغة الماضي (انطلق، خرج، جلس، وقف، نظر)، وذلك في مستهل كل قصة. وكانت النهايات طبيعية متوقّعة تختم الأحداث بصورة ملائمة.

6. تراوح الخيال الفني في القصص من البسيط إلى متوسط البساطة، فقد لمستُ حرص الكاتبة على القيم ومعقولية الأحداث أكثر من حرصها على التخييل.
7. اتسمت جميع القصص بالروح الواقعية المناسبة لعمر الطفل، فدارت أحداث القصص بتراتبية متوازنة لا أثر فيها للمبالغة.
8. اشتملت كل قصة على حوار، وكان الحوار ظاهرة بنائية بارزة في جميع القصص. فقدمت بذلك آداب الحوار بشكل تلقائي يتعلمه الطفل دون إرشادات مباشرة.
9. أخلصت الكاتبة للبيئة الأردنية وتجلياتها، لا سيّما الطبيعة وجمالياتها ومواقعها.
10. كان زمن كل قصة ملائمًا لقدرة الطفل على الاستيعاب.
11. استخدمت البشير أساليب التعبير اليومي لدى الأطفال، فكان الفهم يسيرًا وقريبًا إلى ذهن الطفل.

مجموعة «ومضات أنا وسما»

في عام 2014م أصدرت هيفاء البشير مجموعتها القصصية المشبعة بروح الواقعية «ومضات أنا وسما»، فاتخذت حفيدتها سما شريكًا رئيسًا في الحوار وتبادل الأفكار والنقاش.

إن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى أن الكاتبة كسرت حاجز القطيعة بين الأجيال، فالكاتبة جدّة في الثمانين والحفيدة فتاة يافعة دون الخامسة عشرة. والحفيدة تعيش عصر مواقع الاتصال الاجتماعي والهاتف الجوال وغوغل والآي باد وتويتر والفيس بوك والواتس أب وغير ذلك من تقنيات الثورة التكنولوجية.

جاءت النصوص في صورة حوارات ومراسلات ومناقشات بين الجدة والحفيدة، اتسمت بالحميمية وبقدرة الكاتبة على كسْب ودّ الحفيدة من غير إحساس بالفارق الكبير بين العمرين. وللحق تلك ميزة عظيمة في السيدة هيفاء البشير؛ فهي تتعامل مع جميع

الأعمار بروح شبابية متفهمة منفتحة على الاحترام المتبادل من أجل علاقات حياتية متناغمة.

ضمت الومضات الموضوعات الآتية:

1. وسائل الاتصال ووسائل النقل.
2. وخير جليس في الزمان كتاب.
3. نابلس والسلط.
4. قائد عالمي عظيم يغادر للقاء ربّه.
5. جميلة بوحيرد المرأة العربية المناضلة.
6. رحلتي إلى العقبة.
7. خالتي أميرة وشجرة الميس.
8. التمكين الديمقراطي.
9. الأحلام تتحقق بالصبر والإصرار.

في نصوص الومضات اتجاه واضح نحو ثقافة الفتيان واليفاعة عند الأطفال، ذلك أن جميع النصوص تتناول وقائع اجتماعية أو علمية أو وطنية أو فكرية بصورة تلائم في مستوى مقروئيتها مستوى الأطفال من (12) سنة إلى ست عشرة سنة.

وهو كتاب مدعوم بالصور الحقيقية سواء لأفراد الأسرة أو للشخوص أو للمدن كنابلس والسلط، أو للمعارض والمكتبات، وكانت الكاتبة أيضًا تذكر بعض أحوالها الشخصية وعلاقاتها المباشرة في الأحداث على غرار ما تحدثت به عن نابلس والسلط، فظهرت الكثير من الومضات على أنها سرد من جدة إلى حفيدتها، لكنه سرد غني بالمعلومات والمذكرات التي تفيد الحفيدة وتفيد غيرها من القراء الأطفال كقولها:

«تتشكل السلط من منطقتين، منطقة العواملة شمال المدينة في منطقة جبل السلالم، ومنقطة الأكراد في جنوبها، ويسكن المسيحيون في المنطقتين، ويشكل التعاون والمحبة

أنموذجًا بأفضل صور التعايش الإسلامي المسيحي السلمي محليًّا وعربيًّا»، أو قولها: «مدينة السلط جميلة، أهلها طيبون، صادقو المشاعر، خيّرون، وبينهم الرجال الرجال الذين يحبون بلدتهم ويتميزون باحترام الضيف، واحترام الذات والكرم والنخوة...».

إن مثل هذه العبارات هي توجيهات أو معلومات ذهنية جاهزة تدخل في نسيج النص، فتحيله إلى انفتاح على المقالة والسيرة الذاتية والبوح الخاص.

إن هذا الكتاب لا يندرج تحت فن السرد القصصي بقدر ما يندرج تحت باب النص المفتوح الموجّه إلى تثقيف الناشئة، وهذا التثقيف مختلف الاتجاهات والتجليات في كتابات السيدة هيفاء الحريصة على القيم التربوية والتعليمية في كل ما تكتب.

وعليه فإن هيفاء البشير تكتب وفق أهداف تربوية مخطط لها لتعزيز التربية الجمالية والأخلاقية والاجتماعية عند الأطفال، وتوفير قدر جيّد من المعارف والعلوم والمستجدات العصرية في حياتنا. ففي كتاباتها انتماء متجذر ومحبة خالصة للناس والأطفال والبيئة. لكنها أكثر حرصًا على تمجيد الطفولتين: طفولة الأطفال، وطفولة الكهول.